مرويات عبد الرحمن بن القاسم
ومدى أهميتها في تأسيس مذهب مالك بن أنس

أ.الكريف محمد رضا
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الاسلامية
– جامعة وهران –

الملخص:

مجمل ما جاء في هذا المقال مكانة مرويات ابن القاسم الفقهية عن الإمام مالك، وبيانها من ناحية: مكانة راويها، من ناحية فقه راويها، من ناحية صدق النقل عن ابن القاسم عن مالك مما رواه سحنون باعتبارين: (الصحة والتوثيق، والماهية والاعتبار).

الكلمات المفتاحية: المدونة، المذهب، مالك، ابن القاسم، سحنون.

Summary:

The entirety of what was stated in this article is the status of Ibn al-Qasim's jurisprudential narrations on the authority of Imam Malik, and its statement on the one hand: the position of its narrator, on the side of the jurisprudence of its narrator, on the side of the sincerity of transmission on the authority of Ibn al-Qasim on the authority of Malik, from what Sahnoun narrated with two considerations: (authenticity and documentation, and its essence and consideration).

Keywords: Mudawana, doctrine, Malik, Ibn al-Qasim, Suhnun.

1. *مقدمة*:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وصفيه من خلقه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.أما بعد.

فإن علم الفقه هو من أفضل علوم الدين، إذ ميدانه أعمال المكلفين، والمتبصر فيه موفق لمراد – الباريء الحكيم–؛ جاء فيه عن سيد المرسلين: " من يرد اللَّهِ به خيرا يفقهه في الدين"[1]. ولما خص سبحانه محمدا ﷺ أن جعل رسالته خاتمة الشرائع، جعلها صالحة لكل زمان ومكان، مبنية على نصوص وأصول وقواعد لطفا بالعباد، وتيسيرا لهم في معرفة الحلال والحرام، شاملة لكل ما جدّ من وقائع. يتعرف العلماء حكمها عن طريق الاجتهاد الوافي بتفاصيل أحكام الوقائع؛ لأن النصوص محصورة متناهية، ومواقع الإجماع معدودة منقولة، والوقائع لانهاية لها. ومن أجل تلكم العلماء الذين رسخت أقدامهم في بحر العلم وجلت منازلهم، إمام دار الهجرة مالك بن أنس[2] – رحمه الله–

الذي حبي بعد توفيق الله – جلى وعلى– والحرص وحسن القصد لبيئة هيئت له هذا الدرب، فلقد تفتق في قبلة العلم، مدينة المصطفى–ﷺ– إذ ظفرت من الشيم مما يعز في غيرها، فهي مهجر الرسول–ﷺ–، وبها نزل الشّرع الإسلامي، وأعلنت أحكامه، فكانت قصبة الدّولة الإسلامية، وموطن الخلافة، وفيها تفتق عقل الصحابة، وأبقى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب–رضي الله عنه– أكثر فقهاء الصحابة بجواره قصد الاستشارة والفتيا.[3] وقيض بها سبحانه وعّات حملوا علمهم؛ قال علي بن المديني: "وأخذ على زيد– يعني بن ثابت– ممن كان يتبع رأيه أحد وعشرون رجلاً، ثم صار علم هؤلاء إلى ثلاثة: بن شهاب وبكير بن عبد الله وأبي الزناد. ثم صار علم هؤلاء كلهم إلى مالك"[4].

له – رحمة الله – عليه مناقب جمّة يعز وجودها عند غيره؛ قال الذهبي: "وقد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره، أحدها طول العمر وعلو الرواية

وثانيتها الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم وثالثتها اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية ورابعتها تجمعهم على دينه وعدالته وإتباعه السنن إلى جانب تقدمه في الفقه والفتوى وصحة قواعده. وهذه بعضها"[5]. بل عُدّ السماع عنه– رحمه الله– من زينة الدنيا، قال بشر الحافي: "أن من زينة الدنيا أن يقول الرجل: حدثنا مالك".[6]

– فكان محدث المدينة ومفتيها بلا نزاع، إذ أنه استطاع أن يجمع بين الرّواية والدّراية، ممّا دفع بالبعض يختص بالحديث ممّن كانت له رغبة فيه، كما انصرف البعض الآخر لجمع مسائل الفقه. ومنه تشوفت له الأنظار، وأظمأ الله له الأكباد، وتسارعت له الركبان لنيل شرعة ربنا–ﷻ– والحظي بقسمة ميراث نبيّنا–ﷺ–. ولعلّ من قبول الله–ﷻ– له، وفّق له من الأصحاب ممن نقلوا مذهبه ونشروا فقهه في جلّ الآفاق، ومن أنجب أولئك الأصحاب عبد الرحمن بن القاسم العتقي المصري، فقد صاحبه حوالي عشرين سنة وظفر بجلّ فقهه. إذ هو رائد المدرسة المالكية بمصر التي احتلّت الرّئاسة في فقه مالك بعد وفاته.

فهي في الحقيقة الجذع السّامق لشجرة المذهب، حيث أنّها جمعت من الخصال ما تعز في غيرها.

فقد استطاع روّادها أن يجمعوا بين الفضلين: الآثار كابن وهب وتفريع المسائل كابن القاسم وأشهب. حيث تعتبر هذه المدرسة رائدة منهج اعتماد السّنة الأثرية، العمل جنبا إلى جنب مع الحديث، وهو المنهج الذي ساد المذهب المالكي، وتبنته أكثر مدارس المذهب.[7]

2. التعريف بابن القاسم:

* اسمه: أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد ابن جناده

* نسبه: مولى العتقين ثم لزبيد بن الحارث العتقي، وقيل إن زبيدا كان من حجر حمير والعتقاء ليسوا من قبيلة واحدة هم جمع من قبائل القروى، منهم من حجر حمير ومن كنانة مضر ومن سعد العشيرة وغيرهم.

* مولده: ولد سنة اثنين وثلاثين ومائة، وقيل ثمانية وعشرين ومائة، من الهجرة.

* مكان نشأته: أصله من الشام من فلسطين من مدينة الرملة وسكن مصر.

* وفاته رحمه الله: توفي ابن القاسم– رحمه الله– ليلة الجمعة لسبع ليال مضين من صفر بمصر سنة إحدى وتسعين بعد مائة رحمه الله عاش تسعا وخمسين سنة، وقيل ثمان وخمسون سنة وأشهر. وقبره خارج باب القرافة الصغرى قباله قبر أشهب وهما بالقرب من السور رحمهما الله.(8)

– طلبه للعلم:

بذل هذا الإمام النفس والنفيس في طلب العلم، فكانت بداية طلبه للعلم بمصر، قال ابن وضّاح: سمع ابن القاسم من الشّاميين والمصريين، وإنما طلب وهو كبير ولم يخرج لمالك حتى سمع من المصريين، وقال سحنون عنه: ما خرجت لمالك إلا وأنا عالم بقوله؛ وقال ابن القاسم عن نفسه: حملت أحاديث المصريين فوقع في نفسي طلب الفقه.(9)

من أهم مشايخه:

– الليث بن سعد، بكر بن مضر، سفيان بن عيينة، مسلم بن خالد الزنجي، عبد الرحمن بن شريح، عبد العزيز بن الماجشون، نافع بن أبي نعيم المقرىء، ومالك بن أنس الذي حفل بملازمته، وخلق غيرهم.

علاقته بمالك:

لقد عرف ابن القاسم بطول صحبته وملازمته للإمام مالك، يأخذ عنه الحديث ومسائل الفقه، مما أهلّه هذا الأخير ببراعته في تخريج الفروع الفقهية وفق أصول مالك، فكان رائد هذا الفن ومبدع هذا العلم، وما بلغه في منازل العلم لخير دليل على أهليته. نال ثقة شيخه؛ فقال مالك – رحمه الله–:" ابن وهب عالم، وابن القاسم فقيه". ومعنى فقيه: أي فقيه بالمسائل الفقهية وتخريج الفروع من نظائرها.

وتذكر عنه قصة في مناسبة انصرافه للتلمذة على مالك وشغوفه به. قال ابن القاسم:" حملت أحاديث المصريين فوقع في نفسي طلب الفقه، فأتيت أبا شريح

وكان صالحا، فاستشرته وقلت له: أردت أن أشخص إلى مالك، فقال: ما أحسن الفقه وإن كان أهله يعتريهم الكبر، ولكن اطلب، فلئن تتوسد العلم خير من أن تتوسد الجهل"[10].

في هذه القصة إشارة إلى أن شيوخه الذي سبق ذكرهم، كانت تلمذته عليهم قبل مالك، حيث بعد ملازمته لمالك لم يخلطه بغيره. فوُفِق– رحمه الله– لذلك، حتى نال من مالك قربة دفعت بمزيد بذل في العطاء، فقال – رحمه الله– مبينا كيف كان تتلمذه عليه، قال: "كنت أسمع من مالك كل يوم غلسا إذا خرج من المسجد ثلاثة أحاديث، وفي رواية: أسأله عن مسألتين ثلاثة وأربعة وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر، سوى ما أسمعه مع الناس معه بالنهار".[11]

وأدرك في ذلك مقصده، حتى قال فيه شيخه ما قال، بل وبمقابل ذلك بلغ الأمر به حتى طلب منه مالك بثّ العلم بين الناس، فقال له– رحمه الله–: "اتق الله وعليك بنشر هذا العلم."، وذكر لمالك فقال: "عفاه الله، مثله كمثل الجراب مملوء مسكا". بل وصل به الأمر أن يشهد له بأهلية الاجتهاد؛ سئل عنه مالك وعن ابن وهب فقال: "ابن وهب عالم، وابن القاسم فقيه" [11].

وهذا الذي أدركه الأقران وشهدوا له بذلك؛ فقال ابن وهب لأبي ثابت: "إن أردت هذا الشأن– يعني فقه مالك–، فعليك بابن القاسم، فإنه انفرد به وشغلنا بغيره". وبهذا الطريق رجّح القاضي أبو محمد مسائل المدونة لرواية سحنون لها عن ابن القاسم. وقال ابن وضّاح: "لم يخرج لمالك وعبد العزيز مثل أشهب وابن القاسم وابن وهب، كان علم أشهب الجراح، وعلم ابن القاسم البيوع، وعلم ابن وهب المناسك."

وعلى هذا درج الناس، مما اتفقت كلمتهم على حسن تخريج ابن القاسم، ومدى تقعيده في فقه مالك، إلى جانب حسن أمانته فيه، فقد فرّع فقهه على أصول مالك وقواعده، فلم يحد عنه إلا نادرا. قال يحيى بن يحيى: "كان ابن القاسم أعلمهم بعلم مالك وآمنهم عليه"، وقال ابن حارث: "هو أقعد الناس بمذهب مالك، وسمعنا الشيوخ يفضلون ابن القاسم على جميع أصحابه في علم البيوع." يعني أعلم بأقاويل مالك وأصوله التي بنى عليها مذهبه. فقد كان له قدم سبق في أداء الرواية، وحسن

الأداء، مما دفع بأئمة هذا الفن يشهدون له بذلك، ويكفيه فضلا أن نال من ذلك تزكية من فكي أسد؛ قال فيه النسائي: "ما أحسن حديثه وأصحه عن مالك ليس يختلف في كلمة ولم يرو أحد الموطأ عن مالك أثبت من ابن القاسم، وليس أحد من أصحاب مالك عندي مثله، قيل: فأشهب؟ قال: ولا أشهب ولا غيره."[12]

هذه شهادة كما قيل: بين فكي أسد، مع ماهو الإمام النسائي ومدى شدته في الحكم على الرجال وشهد له بهذه الشهادة اتجاه شيخه.

ممن روى عنه:

بنباهته ودقته وسعة باعه في الفقه، بل بالأحرى فقه مالك واختصاصه به إذ لم يخلط معه غيره كما ذكر ذلك ابن وهب إلا بشيء يسير.

وكل هذا إلى جانب طول صحبته لمالك، مما دفع الناس تنصرف إليه لنيل فقه مالك بما فيهم الأقران. وهذه من المعطيات التي دفعت أسد بن الفرات أن يؤثره عن بقية الأصحاب.

فكان ممن جمع عنه العلم:

– أصبغ بن الفرج، أسد بن الفرات[13]، الحارث بن مسكين، يحي بن يحي الأندلسي، عبد السلام بن سعيد سحنون[14]، وخلق غيرهم.

3. إسهام ابن القاسم في تشييد المدرسة المصرية

عاش ابن القاسم بعد مالك حوالي اثنتي عشر سنة، ونهل من شيخه علما وفيرا، قال القاضي أبو الفضل: "ولابن القاسم سماع من مالك عشرون كتابا، وكتاب المسائل في بيوع الآجال"، فعمل رحمه الله بوصية شيخه بنشر هذا العلم.[15] فحصلت له الريادة بمصر، وانصرفت له الأنظار وتوجه إليه كل من أراد فقه مالك. فقصده أسد ودوّن عنه أسديته، ثم رحل إليه سحنون فنقّح عليه مدونته المشهورة. فأمضى ابن القاسم باقي حياته بمصر، بذلٌ للعلم وتصريفه بين طلابه، حتى وافته المنية بها.[16]

4. رواية ابن القاسم وأهميتها في تأسيس المذهب:

نشأ المذهب المالكي على يد الإمام مالك – رحمه الله– في المدينة النبوية على طريقة أهلها الجامعة للمعرفة بين الحديث النبوي والسنّة المدنية، حيث أكسبه قدرة فقهية وفهم ثاقب، أمكنه مواجهة قضايا الناس ومتطلباتهم، كما عرف عنه من تمسك بالسنة، ومحاربة البدع وتشبثه آثار السلف، إلى جانب لين الجانب ورأفة بالطلبة، مع طول مدة التعليم، واستجماعه أهلية الإمامة.

مما كان له أثر بالغ في كثرة تلامذته والآخذين عنه، فانتشر مذهبه وشاع صيته في بقاع شتى، فممن رحل إليه أهل المغرب، حتى قيل خرج منها أكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقي مالك وسمع منه، وكان من أبرزهم هؤلاء: علي بن زياد التونسي، والبهلول بن راشد، وعبد الرحمن بن الأشرس، وعبد الله بن غانم، وأبو علي شقران القيرواني، وعنبسة بن خارجة الغافقي، وغيرهم ممن بنوا حجر الأساس في هيكلة الفقه المالكي، ونواته اليانعة.

من أبعد أولئك الأعلام أثرا: علي بن زياد، شيخ أسد بن الفرات ومعلم سحنون الفقه، صاحب– يعني علي– العبقرية الفذة، التي اكتشف بها أصول مالك مما أهلته للتنظير ومنطلق التفريع، ومسايرة الوقائع. لعله هذه من الأسرار التي كونت شخصية ابن الفرات، متجلية فيه خصال مربيه– ابن زياد–.[17]

شدة بذله وجرأة في الإقبال على الصعاب، حتى أنه كان يدفعه الأقران لسؤال مالك. قال سليمان بن خالد: "لما سمع أسد الموطأ عن مالك، قال له: زدني سماعا، قال: حسبك ما للناس".[18]

فكان– رحمه الله– مولع بالتفريع والرأي، ولّما رأى منه مالك هذا، أرشده إلى أهل العراق حيث هناك بغيته، إذ أن مالك كغيره من بعض أهل العلم كان لا يستسيغ الفقه التقديري. قال أسد: "كانوا يدفعونني– أي الطلبة– أن أسأل مالكا، فإذا أجابني قالوا لي قل له: فإن كان كذا وكذا، فضاق علي يوما وقال: هذا سلسلة بنت سلسلة، إن كان كذا كان كذا، إن أردت فعليك بالعراق" يعني بفقه العراق فثم ضالتك.

ثم ارتحل إلى العراق قصد نهل فقه أبي حنيفة، فوُفِق له أبو يوسف ومحمد بن الحسن، وكتب علم أبي حنيفة. فلازم بن الحسن حتى أصبح من المناظرين له.

ولما نُعيَ مالك ارتجت العراق بموته، حتى حرّك ذلك نفس أسد بن الفرات وندم على ما فاته من علم مالك. قال أسد: "فوالله ما بالعراق حلقة إلا وذكر مالك فيها، كلهم يقولون: مالك، مالك. إنا لله وإنا إليه راجعون". قال أسد: "فلما رأيت شدة وجدهم واجتماعهم على ذلك ذكرته لمحمد بن الحسن، وهو المنظور فيهم. وقلت له: ما كثرة ذكركم لمالك، على أنه يخالفكم كثيرا؟ فالتفت إلي وقال: أسكت، كان والله أمير المؤمنين في الآثار". فجمع أسد أمره على استدراك مذهبه. (19)

* *مناسبة انصراف أسد إلى ابن القاسم:*

فندم ابن الفرات على ما فاته من علم مالك، فهمّ باستدراك ذلك. قال أسد: "إن كان فاتني لزوم مالك فلا يفوتني لزوم أصحابه".

وكانت بغيته– رحمه الله– أقوال مالك بعينها، فقصد مصر وتوجه إلى أصحاب مالك هناك، أشهب وابن وهب وابن القاسم. إلا أن الروايات اختلفت في مناسبة ترجيحه ابن القاسم. ففي رواية: ذكر أنهم تورعوا من ذلك، ولا زال يراود ابن القاسم حتى انشرح صدره لذلك، وفي الرواية أنه: انصرف إلى ابن وهب، وكانت عناية ابن وهب بالآثار، ثم عدل عنه لأشهب وكان أشهب يجيبه باجتهاداته هو لا برأي مالك. ولكن أسد أراد قول مالك لا غيره، فعدل عنه لابن القاسم فوجد عنده بغيته.

فأتى بمسائل من عند محمد بن الحسن يريد فيها قول مالك، فرجع بها إلى ابن القاسم فسأله عنها فأجابه بقول مالك الذي سمعه منه أو بلغه عنه، وإن كان لمالك أقوال في المسألة الواحدة رجّح أحدها، وإن تعذر النقل عن مالك في المسألة قاس عليها أو خرّج عليها، وإلاّ اجتهد فيها برأيه(20).

– إلا أن لطول غربة أسد بن الفرات استعجل الرجوع إلى أهله ووطنه، مما جعله لم يستيقن ابن القاسم من أجوبته، وجاء إلى القيروان بكتابه، وكان لازال مسودة، فسمي بالأسدية نسبة إليه، وانتفع به الناس. إلا أن أهله نقموا عليه عدم الاستوثاق، حيث قالوا له: جئتنا بأخال وأظن وأحسب، وتركت الأثار وما عليه السلف، فقال: أما علمتم أن قول السلف هو رأي لهم، وأثر لمن بعدهم، ولقد

كنت أسأل ابن القاسم عن مسألة فيجيبني فيها، فأقول له: هو قول مالك؟ فيقول: كذا أخال أو أرى وكان ربما ورعا يكره أن يهجم على الجواب.[21]

فقرأها سحنون على أسد، ثم ارتحل إلى المشرق سنة ثمان وثمانين ومائة، لقي ابن القاسم، وأخذ عنه وعارضه بمسائل الأسدية، فقال ابن القاسم: فيها أشياء لابد من تفسيره، وأجاب عما كان يشك فيه، واستدرك فيها أشياء كثيرة، لأنه أملاها على أسد من حفظه؛ وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه، واستوثق ما كان ظنا.

5. مكانة سحنون في مذهب مالك:

كان سحنون حافظا للعلم فقيه البدن، انتشرت إمامته في المشرق والمغرب، سلم له الإمامة أهل عصرهم، واجتمعوا على فضله وتقديمه، ولاسيما فقه مالك. قال محمود بن يزيد: "وإن قلت أن سحنون أفقه من أصحاب مالك كلهم، إني لصادق". فسمع من عبد الرحمن بن القاسم وأعجب به؛ قال ابن القاسم لابن رشيد: "قل لصاحبك- يعني سحنون- يقعد، فالعلم أولى به من الجهاد، وأكثر ثوابا."، قال عنه أشهب: "ما قدم علينا أحد مثل سحنون، قيل له: فأسد؟ قال: سحنون والله أفقه منه تسع وتسعين مرة".

سمت مرتبته في هذا الشأن؛ قال عيسى بن مسكين: "ولم يكن بين مالك وسحنون أفقه من سحنون". قال سحنون: عندي ستة، أو أربعة وأربعون كتابا، من البيوع، منها كتابان أو ثلاثة أصلها أربع مسائل في الموطأ. لذلك كانت مخالفته لها وقع على النفوس.[22]

فكان أبو سعيد عاقلا بمرة، ورعا بمرة، عالما بمذاهب المدنيين بمرة. واجتمع له مع ذلك فضل الدين، والعقل والورع والعفاف والانقباض، فبارك الله فيه للمسلمين. فمالت إليه الوجوه، أحبته القلوب وصار زمانه كأنه مبتدئا قد أمحى ما قبله. قال الشيرازي: "إليه انتهت الرئاسة في العلم بالمغرب، وعلى قوله الوصل به، وصنف المدونة وعليه يعتمد أهل القيروان... وعنه انتشر علم مالك".[23] ولم يتوسع- رحمه الله- في الحديث كتوسعه في الفروع، فلازم ابن وهب وابن القاسم

وأشهب، حتى صار من نظرائهم وساد أهل المغرب في تحرير المذهب، وانتهت إليه رئاسة العلم، وعلى قوله المعول بتلك الناحية وتفقه به عدد كثير.[23]

فجاء العلماء بعده فعكفوا على كتبه وبالأحرى مدونته، فشرحوها ولخصوها، وعلّقوا عليها، وهكذا توالى الاختصار والتعليق والشروح عليها في مختلف الأزمنة.[24]

6. المدونة وأهميتها في المذهب:

إذ الواقع يشهد أن المدونة لقيت رواجا عند جلّ من صنف في المذهب، بل عدّها بعضهم أصل علم المالكيين، وما سواها عالة عليها وحسنة من حسناتها، حيث أنه تعد المدونة ثمرة مجهود أئمة هو أحدهم، فمالك بإجاباته، فهي الديوان الثاني الذي يجمع أقواله، وابن القاسم هو الراوي عنه في هذا الديوان، إلى جانب قياساته وزياداته فيه. إذا فابن القاسم في مذهب مالك مثل محمد بن الحسن الشيباني في مذهب أبي حنيفة، إذ بينهما تشابه كبير، فكل منهما نقل مذهب صاحبه ورواه عنه مع رأي واجتهاد، فكثير من ترجم لابن القاسم نسب المدونة إليه.[25]

– ويقول في ذلك صاحب المقدمات: "رحل سحنون إلى ابن القاسم، فكانت مما قرأ عليه مسائل المدونة والمختلطة ودونها، فحصلت أصل علم المالكيين، وهي مقدمة على غيرها من الدواوين بعد موطأ مالك، ويرى أنه ما بعد كتاب الله كتاب أصح من موطأ مالك رحمه الله ولا بعد الموطأ ديوان في الفقه أفيد من المدونة هي عند أهل الفقه ككتاب سبويه عند أهل النحو، وكتاب إقليدس عند أهل الحساب، وموضعها من الفقه موضع أم القرآن من الصلاة تجزىء عن غيرها، ولا يجزي غيرها منها"[26].

أ– مترلتها *من جهة الصحة والتوثيق*:

ومنه يتبيّن أن الأصل الذي قام عليه الفقه المالكي المعروف اليوم هو المدونة، فهي أصدق رواية، وأحرى بالقبول من حيث سماعها وإلى جانب ما قاله ابن رشد فقد جاء في فتاوى عليش عن أبي محمد صالح: "إنما يفتي بقول مالك في الموطأ، فإن

لم يجده في النازلة، فبقوله في المدونة، فإن لم يجده فبقول ابن القاسم فيها، وإلا فقوله في غيرها، وإلا فبقول الغير في المدونة، وإلا فأقاويل أهل المذهب".

ونقل أيضا عن أبي الحسن الطنجي أنه قال: "قول مالك في المدونة أولى من قول ابن القاسم فيها، فإنه أعظم. وقول ابن القاسم فيها أولى من قول غيره فيها، لأنه أعلم بمذهب مالك، وقول غيره فيها أولى من قول ابن القاسم في غيرها، وذلك لصحتها" (27).

ب- مترلتها *من جهة الماهية والاعتبار*:

وخرّج البعض أن أمهات المذهب تكمن في ما يلي: أن المدونة مجموعة من المسائل والفروع، وكانت العناية فيها إلى تصحيح الرواية، وتوثيق السماع أكثر من الاتجاه إلى وضع الأدلة، وبيان أصول المسائل، والواضحة كانت عناية ابن حبيب فيها، باستخراج المعاني، والقواعد التي قامت عليها الفروع، وأنه ربما أغنته بعض الفروع في ذلك، فاكتفى ببعض الروايات لأن مقصده أن يصل إلى المعاني التي لوحظت في الأحكام، فما يجد في بعض الروايات غناء فيه يكتفى به، وإن لم يجد بحث حتى يصل، فمقصده المعاني لا الأحكام نفسها، وأمّا الموازية فقد قصد فيها إلى رد الفروع إلى أصولها، وبيان الأدلّة للأحكام المأثورة في الفقه المالكي، وما تعتمد عليه من الكتاب والسنة والمصالح المعتبرة شرعا، وقد يعرض فيها إلى الموازنة بين الفقه المالكي والفقه العراقي، والفقه الشافعي، ليذب عن أراء مالك، ويدافع عنها. وهذا التّخريج ممّا يثبت هو آخر مكانة المدونة من نقل المذهب، وصدارتها في الرّواية وجودة السّماع، إذ هي أصحّ كتب الفروع في الفقه المالكي رواية، وأصلهم الثاني بعد الموطأ. ولعل أي كتاب من كتب المذهب لم يحظ بمثل ما حظيت به المدونة فلقد افتتن بها النّاس افتتانا، حتى قال قائلهم: ما من حكم نزل من السّماء إلا وهو في المدونة.

7. الهوامش:

(1) البخاري: 71، مسلم: 2436

(2) هو شيخ الإسلام ، حجة الأمة، إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك ابن أنس بن مالك الحميري ثم الأصبحي المدني، مولد مالك على الأصح في سنة ثلاث وتسعين عام موت أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونشأ في صون ورفاهية وتجمل.

– وطلب العلم وهو حدث بعيد موت القاسم، وسالم. فممن سمع عنهم: نافع مولى بن عمر، وسعيد المقبري، وعامر بن عبد الله بن الزبير، وابن المنكدر، ربيعة الرأي ، والزهري، وعبد الله بن دينار، وخلق لا يحصون.

– طلب مالك العلم، وهو ابن بضع عشرة سنة، وتأهل للفتيا، وجلس للإفادة، وله إحدى وعشرون سنة، وحدّث عنه جماعة وهو حي شاب طري، وقصده طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور وما بعد ذلك، وازدحموا عليه في خلافة الرشيد، وإلى أن مات. فمن بين الآخذين عنه: ابن أبي الزناد، وابن علية، ويحيى بن أبي زائدة، وأبو إسحاق الفزاري، ومحمد بن الحسن الفقيه، وعبد الرحمن بن القاسم، وعبد الرحمن بن مهدي، ومعن بن عيسى القزاز، وعبد الله بن وهب، وأبو قرة موسى بن طارق، والنعمان بن عبد السلام، ووكيع، والوليد بن مسلم، ويحيى القطان، وبقية بن الوليد، وأشهب بن عبد العزيز، وأبو عبد الله الشافعي، وعبد الله بن عبد الحكم، وزياد بن عبدالرحمن "شبطون" الأندلسي، وأبو داود الطيالسي، وعلي بن زياد، ويحي بن يحي الليثي، وأسد بن الفرات. قال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وقد كان مالك إماما في نقد الرجال، حافظا، مجودا، متقنا، أول من انتقى الرجال. قال الذهبي: وبكل حال: فإلى فقه مالك المنتهى. فعامة آرائه مسددة، ولو لم يكن له إلا حسم مادة الحيل، ومراعاة المقاصد، لكفاه. ومذهبه قد ملأ المغرب، والأندلس، وكثيرا من بلاد مصر، وبعض الشام، واليمن، والسودان، وبالبصرة، وبغداد، والكوفة، وبعض خراسان.

– ولمالك – رحمه الله– تواليف منها: موطأه المشهور، ورسالة في القدر، كتبها إلى ابن وهب وإسنادها صحيح، وله مؤلف: في النجوم ومنازل القمر، رواه سحنون، عن ابن نافع الصائغ، عنه مشهور، ورسالة في الأقضية، مجلد، رواية محمد بن يوسف بن مطروح، عن عبد الله بن عبد الجليل، وله جزء في التفسير يرويه خالد بن عبد الرحمن المخزومي، ورسالة إلى الليث في إجماع أهل المدينة معروفة، فأما ما نقل عنه كبار أصحابه من المسائل، والفتاوى، والفوائد، فشيء كثير...

- توفي مالك بن أنس الأصبحي لعشر مضين من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، وقيل غير ذلك (انظر ترجمته: ترتيب المدارك:**25/1**، الديباج المذهب:**6/1**، سير أعلام النبلاء:**48/8**، طبقات الفقهاء:**67/1**، وفيات الأعيان:**135/4**)

(3) ينظر: أبو زهرة: [مالك: حياته وعصره- آراؤه وفقهه. دار الفكر العربي]، ص: **116**.

(4) الديباج:(**5/1**)، تذكرة الحفاظ(**208/1**) [للإمام الذهبي* دار احياء التراث العربي. د، ط]؛ سير أعلام النبلاء:**52/8**)

(5) تذكرة الحفاظ:**212/1**

(6) سير أعلام النبلاء:**74/8**

(7) ينظر: أبو زهرة؛ مالك: **159**، **183**؛ مقدمة ابن خلدون:**420**) اصطلاح المذهب عند المالكية(**70**) د: محمد إبراهيم علي[دار البحوث للدراسة الإسلامية وإحياء التراث. ط2: **1423**هـ-**2002**م]

(8) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك(**250/1**) للقاضي أبي الفضل عياض(ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم)[منشورات محمد علي بيضون- دار الكتب العلمية-بيوت، لبنان: **1418**هـ-**1998**م

- سير أعلام النبلاء(**120/9**) للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي[مؤسسة الرسالة- بيروت، لبنان- **1422**هـ-**2001**م؛ شذرات الذهب(**420/2**)لابن العماد الحنبلي الدمشقي: أبي الفرج عبد الحي بن أحمد بن محمد(أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، وحققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط)-دار ابن كثير: دمشق **1408**هـ-**1988**م ؛ شجرة النور الزكية**88/1**)

(9) ترتيب المدارك: **252/1**

(10) ترتيب المدارك:**252/1-253**.

(11) نفس المصدر

(12) المصدر نفسه

(13) الإمام العلامة القاضي الأمير، مقدم المجاهدين، أبو عبد الله الحراني، ثم المغربي. مولده بحران سنة أربع وأربعين ومئة، وقيل غيره. ودخل القيروان مع أبيه في الجهاد، وكان أبوه الفرات بن سنان من أعيان الجند، وقيل بل قدم أبوه وأمه حامل.

- وقد كان علم القرآن ببعض القرى، ثم اختلف إلى علي بن زياد بتونس، فلزمه وتعلم منه وتفقه بفقهه، ثم رحل إلى المشرق، فجمع من مالك ابن أنس موطأه، وغيره. ثم ذهب إلى العراق فلقي أبا يوسف ومحمد بن الحسن وأسد بن عمرو، وكتب عن يحيى ابن أبي زائدة وهشيم، والحسيب وأبي شريك، وأبي بكر بن عياش وغيرهم. وأخذ عنه أبو يوسف موطأ مالك، وغلب عليه علم الرأي، انتقل إلى العراق وكتب علم أبي حنيفة، وعند موت مالك ندم أسد على ما فاته وجمع أمره على الانتقال إلى مذهبه. فقدم مصر؛ قال ابن الحارث: فقال أسد عن ذلك: إن كان فاتني لزوم مالك فلا يفوتني لزوم أصحابه، فوفق له ابن القاسم فأجابه إلى ما طلب. فأجابه فيما حفظ عن مالك بقوله. وفيما شك قال: أخال وأحسب وأظن به، ومنها ما قال فيه، سمعته يقول في مسالة كذا وكذا. ومسألتك مثله، ومنه ما قال فيه باجتهاده على أصل قول مالك، وتسمى تلك الكتب الأسدية؛ قال أسد: فكنت أكتب الأسئلة بالليل في قنداق من أسئلة العراقيين على قياس قول مالك. وأغدو عليه بها، فأسأله عنها. فربما اختلفنا فتناظرنا على قياس قول مالك فيها. فارجع إلى قوله أو يرجع إلى قولي.
- بسبب أسد ظهر العلم بإفريقية،أعلم العراقيين بالقيروان كافة، ولما قدم أسد القيروان سمع منه علماؤها كسحنون ابن سعيد، وأصحابه المعروفون به، وسائر الكوفيين سمعوا منه كتب أبي حنيفة. وكان أسد إذا سرد أقوال العراقيين يقول له مشائخ المدنيين: أوقد القنديل الثاني يا أبا عبد الله. فيسرد أقوال المدنيين. وكان مع توسعه في العلم فارسا بطلا شجاعا مقداما، كانت وفاة أسد في حصار سرقوسة، من غزوة صقلية، وهو أمير الجيش وقاضيه. سنة ثلاث عشر ومائتين. وقيل أربع عشرة، وقيل سبع عشرة. وقبره ومسجده بصقلية. انظر ترجمته:ترتيب المدارك:**168/1**، الديباج المذهب:**52/1**، سير أعلام النبلاء:**225/10**.

(14) سحنون بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخي قاضي أفريقية الثقة الحافظ للعلم فقيه البدن، يكنى أبا سعد اسمه عبد السلام وسحنون لقب غلب عليه؛ باسم طائر حديد: لحدته في المسائل

- أخذ سحنون العلم بالقيروان من مشايخها: أبي خارجة وبهلول وعلي بن زياد وابن أبي حسان وابن غانم وابن أشرس وابن أبي كريمة وأخيه: حبيب ومعاوية الصمادحي وأبي زياد الرعيني ورحل في طلب العلم في حياة مالك وهو بن ثمانية عشر عاماً أو تسعة عشر وكانت رحلته إلى بن زياد بتونس وقت رحلة بن بكير إلى مالك، وبمصر من ابن وهب وابن القاسم وأشهب وعبد الله بن عبد الحكم وشعيب بن الليث وغيرهم وبالمدينة من عبد

الله بن نافع الصائغ ومعن بن عيسى وعبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون وغيرهم وبالشام من الوليد بن مسلم وأيوب بن سويد.

- إليه انتهت الرئاسة في العلم بالمغرب وعلى قوله المعول بالمغرب وصنف المدونة وعليها يعتمد أهل القيروان وحصل له من الأصحاب ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك وعنه انتشر علم مالك بالمغرب، فاجتمع له مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف والانقباض فبارك الله فيه للمسلمين فمالت إليه الوجوه وأحبته القلوب وصار زمانه كأنه مبتدأ قد امحى ما قبله فكان أصحابه سرج أهل القيروان وأنبه علمائها وأكثرهم تأليفاً، سئل أشهب من قدم إليكم من المغرب؟ قال: سحنون. قيل: فأسد؟ قال: سحنون والله أفقه منه بتسع وتسعين مرة. وقال أشهب: ما قدم إلينا من المغرب مثله ولقد حثه ابن القاسم على أن يقيم عنده يطلب العلم، ويدع الخروج إلى الغزو.

- حتى قيل فيه: لم يكن بين مالك وسحنون أفقه من سحنون، قال ابن حارث: سحنون إمام الناس في علم مالك. قال يوما لابنه محمد: فإن قدمت علي بلفظة خرجت من دماغ مالك ليس عند شيخك أصلها، فاعلم أن شيخك– يعني نفسه– كان مفرطاً. مات– رحمة الله عليه– سنة أربعين ومائتين في رجب وهو ابن ثمانين سنة. (الديباج:**98/1**، ترتيب المدارك:**217/1**، طبقات الفقهاء:**156/1**)

(15) الديباج المذهب:**467/1**

(16) ترتيب المدارك:**254/1**

(17) التهذيب في اختصار المدونة(ص:**6–22**) لأبي سعيد البراذعي(دراسة وتحقيق محمد الأمين ولد محمد سالم بن الشيخ[دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث– دبي، دولة الإمارات،ط:**1**، سنة:**1420**هـ/**1999**م])

(18) ترتيب المدارك: **278–270/1**

(19) المصدر نفسه

(20) نفس المصدر، طبقات الفقهاء:**155/1**

(21) انظر: ترتيب المدارك:**273/1**؛ وأبو زهرة؛ مالك: **198**؛ اصطلاح المذهب:**117**

(22) ترتيب المدارك: **342/1**

(23) نفس المصدر، سير أعلام النبلاء:**225/10**

(24) ينظر أبو زهرة؛ مالك: **200**

(25) القواعد الفقهية المستنبطة من المدونة الكبرى(126/1)للدكتور: أحسن زقور* دار ابن حزم–بيروت، لبنان:1426هـ/2005م .

(26) أبو زهرة؛ مالك: 194

(27) المصدر السابق